هل القراءات المعاصرة للقرآن تحلل من المبادئ؟

بدايةً ينبغي أن نفرق بين القراءَات القرآنية والقراءات المعاصرة، فحديثنا لا يتعلق بتلك القراءات القرآنية العشر التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وأجاز للمسلمين القراءة بها، والتي يتعلمها طلبة العلم في الجامعات والمساجد ومراكز تحفيظ القرآن، فتلك القراءات كلها صحيحة، وإنما نعني القراءات المختلفة والأفهام الخاطئة، التي يفهمها بعض المزاجيين لمعاني القرآن الكريم.



الدكتور: محمد محمود كالو
إمام مسجد- العين

إنَّ أهم القراءات القرآنية المعاصرة قراءَتان:

الأولى: القراءة المزاجية للقرآن: التي تصدر عن أصحاب الأهواء المختلفة ويفهمون بها القرآن فهماً منفتحاً متطوراً!! ويدعون إلى تغيير الخطاب القرآني، ليتفق مع قيم العصر الحديث.

الثانية: القراءة الصحيحة له: وهي التي تصدر عن العلماء المخلصين ، الذين أحسنوا فهم القرآن، واعتبروه كتاب حياة وحركة وحكم وتشريع.

منذ أن جاء الإسلام وبزغت شمسه، وأعداؤه يحاربونه ويكيدون له، فقد هالهم ما جاء به الإسلام من تعاليم قيِّمة، وما أرسى من مبادئ سامية، الأمر الذي سارع في انتشاره وعلو سلطانه، وإقبال الناس عليه، فجن جنون خصومه، فتواطؤوا على حربه بكل ما يستطيعون، فما زادتهم محاربته إلا خساراً، ولا الإسلام إلا انتصاراً، فحاروا في أمرهم، وغلت بالحقد قلوبهم، فأمعنوا في ذلك النظر، وقلّبوا في وجوه حربه الفكر، حتى قال القسيس صمويل زويمر: ولتقطع الشجرة بجزء منها.

فدفعوا أغراراً من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، ويشوّهون ديننا الحنيف، لتكون الفتنة أشد وأنكى.

فولجوا الباب من هذا المسلك الخبيث، فنفثوا بأساطيرهم على حقائقه، ليُكدّروا ويُشوّهوا جَمَاله، متفننين في ذلك بين كذب اختلقوه، أو مثله مَن كتبهم المحرفة نقلوه.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فها هو المكر والخداع يأخذ طريقه في حرب الإسلام، ولكن بثوب جديد وقراءة جديدة للنص الديني، إنه مسلك التضليل الثقافي، في خبث ودهاء، تحت شعار البحث العلمي، أو السعي وراء الحقيقة.

لقد كنت أتساءَل كثيراً: لماذا هذه الهجمة المبرمجة على القرآن الكريم، ونبي الإسلام والوحي واللغة والتفسير والتأويل وكل ما له علاقة بالإسلام؟!

قد نجد عذراً لغير المسلمين، ولكننا لا نجد عذراً للكتّاب المسلمين غير المتخصصين في الدراسات الإسلامية، الذين لم يتعرفوا على مناهج العلوم الإسلامية، بل انبهروا بالمناهج الغربية، والعلوم المادية والحضارة المعاصرة، أصحاب القراءات المعاصرة الذين كتبوا لتجديد الفكر الإسلامي، دون امتلاك لأدواته، من رصيد معرفي بالتراث والتاريخ والمصادر الإسلامية، وكيفية التعامل معها.

وظنّوا أنهم بمجرد إلقاء التهم على التراث والعلماء المسلمين، وبمجرد عرض أفكارهم الجديدة البرّاقة واللافتة بدعاوى المنهجية العلمية، والحرية الفكرية، ستتبعهم الأمة، وتنصرف عن أهل العلم المتخصصين، ورجاله المخلصين، وقد نسي هؤلاء أن دون ذلك خرط القتاد، فكم حاول مَن قبلهم فلم يفلحوا؟



هل تفسير القرآن حكر على علماء الدين؟



وقد يتساءَل أحدهم قائلاً: هل التعامل مع القرآن الكريم حكر على علماء الدِّين؟ أم إن علماء اللسانيات والاجتماع، وسائر العلوم الإنسانية، من حقهم أيضاً توليد واستنباط رؤى وأفكار وتصوّرات من القرآن الكريم؟

أقول: إنّ موضوع فهم القرآن والتدبُّر في آياته مُتاح ومُيسَّر للجميع وليس حكراً على أحد، ولكن لا يجوز لأحد أن يقول في كتاب الله تعالى شيئاً وهو لا يملك أدوات المعرفة، فهناك شروط لمن أراد أن يستنبط من القرآن الكريم، وحين تتخلّف هذه الشروط أو بعضها، ينقلب من حق وعلم إلى باطل وجهل، ولا تصح نسبته إلى كتاب الله تعالى بوجه من الوجوه.

تعريف كلمة (القراءات)

القراءة: مصدر قرأ يقرأ قراءة، وهي بهذا المعنى – بالنسبة إلى القرآن الكريم – تعني: التلاوة، ولها شروطها وآدابها وأقسامها، وقاراه مقارأة وقراءة – بكسر القاف – دارسه، وتقرّأ – بالتشديد – تفقَّه.

ومن أصحاب القراءة المعاصرة مَن قال: كلمة (اقرأ) لا تعني فعل القراءة، إنها كلمة ذات أصل كلداني، وتعني: أعلن وجاهر ونادي وبلغ، ومنها بلغتنا العربية، يقرأ السلام بمعنى يبلغه، فالآية لا تطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرأ، بل تكلفه بإعلان الدعوة لإصلاح خطأ جوهري في مفهوم الإله الواحد.

ثم أورد كلمة (قراءة جديدة) بالمعنى المتفق عليه، وليس بمعنى بلغ ونادي، فالقرآن لم يقل اكتب، بل قال اقرأ، لأنه ليس كتاباً جديداً، بل قراءة جديدة في كتاب الله نفسه.

ثم يقول أيضاً:

القصة المتداولة في كتب التفسير، هي مجرد محاولة لتمرير الفكرة القائلة، إنّ الرسول محمَّداً صلى الله عليه وسلم، كان أُميـاً.. وهي فكرة ولدت لتفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ – «الأعراف/١٥٧». هذا التفسير مجرَّد خطأ ناجم عن سوء التفسير، فكلمة أُمّي لا تعني غير المتعلم، إنها مصطلح توراتي، بمعنى أممي.

ويقول إنَّ الآية في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ – «الجمعة/٢». شهادة صريحة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن يُحسن القراءة فحسب، بل كان مُعلِّماً ومَحاضراً.

نجد أن هذا المؤول أثبت أولاً أنّ كلمة (اقرأ) لا تعني فعل القراءة، إنها كلمة ذات أصل كلداني، وتعني: أعلن وجاهر ونادي وبلغ، ثم ناقض نفسه بنفسه فقال: لم يقل اكتب بل قال اقرأ، لأنه ليس كتاباً جديداً، بل قراءة جديدة في كتاب الله نفسه.

وبهذا الخلط يريد المؤولة الجدد أن ينفوا الأمية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ليفقد الإسلام – بزعمهم – إحدى

معجزاته ألا وهي القرآن الكريم، ويثبتوا بشرية القرآن.

وعلى كل فالقراءة الجديدة المشار إليها في هذا البحث مصطلح جديد، وهي تعني: استخدام النظريات الحديثة في تأويل القرآن الكريم.

أما كلمة (المعاصرة):

فهي مأخوذة من العصر، والعصر: الوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس، والدهر، والزمن يُنسب إلى ملك أو دولة، أو إلى تطورات طبيعية أو اجتماعية. يُقال: عصر الدولة العباسية، وعصر هارون الرشيد، والعصر الحجري، وعصر البخار والكهرباء، وعصر الذرة.

والمقصود بالمعاصَرة هنا: العصر الحاضر، أي القراءات الجديدة والمعاصرة في العصر الراهن، وسموا هذه القراءات بالمعاصرة تمهيداً لأن يكون في كل عصر قراءة جديدة للقرآن الكريم.

تقول الكاتبة المسلمة الأميركية مريم جميلة:

إنّ البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة، ومنها مصطلح (العصرية). وقد جنَى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى، فالعصرية والمعاصرة بالمفهوم غير الإسلامي تعني: عدم الرضا بالإسلام ديناً معقولاً مفهوماً لدى شعوب الدنيا.

من هنا نرى أنهم أرادوا شيئاً آخر من مصطلح المعاصرة.

وهكذا أصبح يشيع اليوم في الأقطار الإسلامية مصطلح (القراءات المعاصرة) كتعبير حديث عن وجهات النظر المختلفة المفسرة للنصوص الدينية وغيرها، ظلت ردحاً من الزمن تمثل ظاهرة فردية، حينما كتب محمد توفيق صدقي، الذي ينكر السنة، كتب مقالاً بعنوان: (الإسلام هو القرآن وحده) ونشر في مجلة «المنار»، عدد ٩ سنة: ١٩٠٦، وذهب فيه مذهباً تأويلياً، وقال: لا يجب القيام بما تواتر عن النبي (ﷺ)، إنْ لم يرد له ذكر في القرآن، وأُعجب بهذا الرأي عبدالمجيد الشرفي، فكان هذا المقال إرهاصاً للقراءة المعاصرة والجديدة الظاهرة اليوم.

كانت ظاهرة فردية ثم أصبحت ظاهرة جماعية، ينتمي إليها أفراد من مختلف الأقطار العربية والإسلامية، تجمعهم أفكار متقاربة متطابقة، ويوحّدهم أو يكاد منهج مشترك، ويمكن تصنيفهم في نحلة واحدة.

ولا يخلو بلد من ممثلين لها، ومنتمين إليها، وإن كان البارزون فيها بالتأليف والتنظير والتقرير ليسوا بالعدد الكبير.

نذكر على سبيل المثال: من مصر نصر حامد أبو زيد، ومن السودان محمود محمد طه، ومن سوريا محمد شحرور، ومن تونس عبدالمجيد الشرفي ومحمد الشرفي، ومن فرنسا محمد أركون من أصل جزائري، ويتبع هؤلاء ثلة من المؤلفين أقل شهرة منهم، يمشون على طريقهم، وتبعهم جملة من الطلبة الذين أعدّوا بإشرافهم أطروحات جامعية، تنحو المنحى نفسه.

لا ريب في أنّ هذا المصطلح (القراءات المعاصرة) غربي المنشأ وغريب عن الثقافة الإسلامية، وقائم على أساس نظريات الهرمنوطيقا الغربية الحديثة.

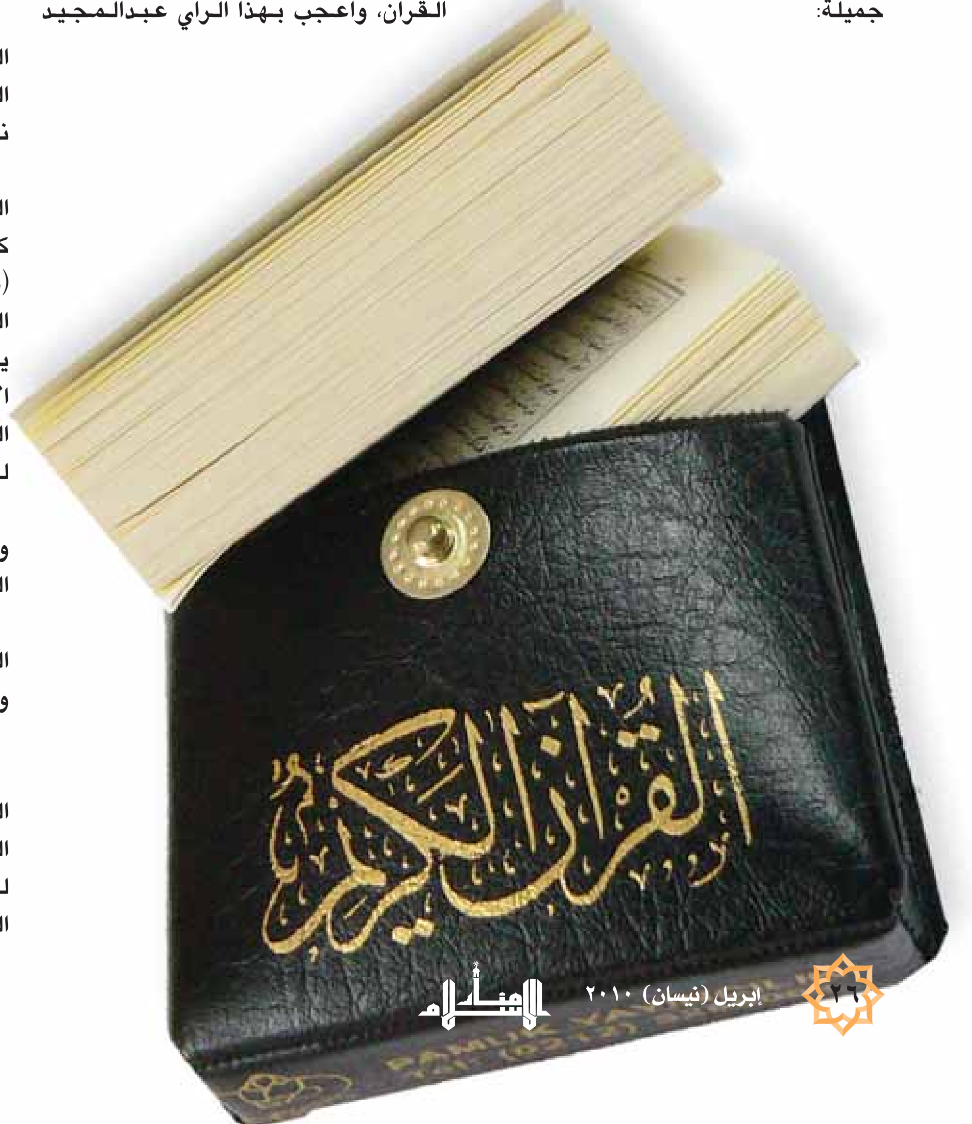
والهرمنوطيقا: مصطلح يوناني يعني التفسير، وقد استعمله أرسطو في بعض كتبه بهذا المعنى، ويعتبر شلاير ماخر (١٧٦٨ - ١٨٣٤م) مؤسس الهرمنوطيقا الحديثة، ويبدأ رأيه بهذا التساؤل: كيف يتم فهم الأقوال؟ فالهرمنوطيقا: يعني فن الاستماع وفهم العبارة والممارسة المكررة للنشاط الذهني للقائل أو المؤلف لهذا النص.

إن الهرمنوطيقا نشأت لتحل لغزاً ومشكلة وتبرر موقفاً غامضاً في النصوص المسيحية.

فما علاقة التفسير الهرمنوطيقي المسيحي بالتفسير الإسلامي للقرآن والسنَّة؟

وهل هما على مسار واحد؟

إنَّ التفسير المسيحي نشأ لحل المشاكل العويصة، التي طرحت أمام النصوص الدينية في العهدين، وجاء ليبرر هذه النصوص ورأينا كيف أن هذا التبرير لا يصمد أمام الحقائق العلمية



الدامغة.

أما التفسير الإسلامي، فقد جاء للتعمُّق والتوضيح في النص القرآني، ولايزال باستمرار يكتشف آفاقاً من المعرفة.

وبتعبير آخر، فإنّ المفسّرين لم يواجهوا من المشاكل ما واجهه المفسرون النصارى.

أما عنصر الأسطورة المنافية للعقل، فلا نجده في كتاب الله عز وجل.

نعم قد نجد الحديث عن خوارق العادة، كتكلم طفل. قال الله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾ – «مريم/٢٩-٣٠».

أو طول عمر إنسان. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ – «العنكبوت/١٤».

وهذا وأمثاله يفسر بقدرة الله عز وجل الخارقة، ويؤكدها العقل المؤمن بالقدرة الإلهية الخارقة، بل نجد القرآن ينفي الأساطير كمسألة نفي البحيرة والسائبة، وما يتعلق بالأصنام.

أما الحقائق العلمية فلم نجد أي خلاف بين العلم والقرآن.

فهل من جديد في هذه النظرية، نظرية القراءات المعاصرة؟

وهل لدينا ما يقابله من مصطلحات تفي بالغرض، فلا نضطر إلى استيراد مُصطَلح جديد؟

نعم لدينا مصطلح الاجتهاد: مصطلح إسلامي أصيل يقوم مقام المصطلح الوافد مع فارق كبير، فهل ترويج هذا المصطلح (القراءات) يُعدُّ إهداراً لهذا المخزون الإسلامي العظيم؟

من خلال قراءتنا لِمَا يكتبه أصحاب هذه القراءات، نستنتج أن الغرض من هذه القراءات، هو التحلُّل من المبادئ، والتحريف لمعاني القرآن، وجعلها تناقض الحقائق الشرعية، وتعارض مقاصد الشريعة الإسلامية، ولا تحترم خصوصيات القرآن الكريم، وتحاول أنْسَنته وإحالته إلى التاريخية، ومعاملته كباقي النصوص البشرية.

”هل يصح استخدام النظريات الحديثة في التأويل؟“

إننا لا نخشى من الأفكار الجديدة المعاصرة، لأننا واثقون بديننا وتراثنا، وعلومنا وتاريخنا، ونقبل النصح، لأن ديننا دين النصيحة، ونتعامل بالحوار، لأنه منهج الأنبياء والمرسلين، ونستمع للرأي الآخر إذا كان سليماً معافى، وليس أصداء واجتراراً لأفكار المستشرقين والملحدين، ونعتقد أن كل دعوة مناهضة للأسس والثوابت مصيرها الإخفاق والفشل، وصدق الله تعالى القائل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ – «الرعد/١٧».

القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، هي كتابات تمشي في اتجاه التحلل من كل الالتزامات والقيَم والمبادئ والشرائع، وتحل للناس ما حرَّم الله عز وجل. وتقول في كتاب الله بغير علم.

إنّ اختلاف الرأي حق مشروع في ديننا الحنيف، ومن حقنا أن نرد عليهم، ونُفنِّد ما يقولون، وقد كانت هناك عشرات الفرق التي عاشت في المجتمع الإسلامي، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني، سجل مليء بآراء تلك الفرق، لم يضق المسلمون ذرعاً بتلك الفرق، ولكنهم بَيَّنوا أخطاءها، وكشفوا زيوفها، ولا تعدو مجمل الآراء والأفكار التي يطرحها أصحاب القراءات المعاصرة اليوم إلا أن تكون ظلالاً لآراء تلك الفرق، ومنها أصداء لأفكار بعض المستشرقين والملحدين، ونحن لا نضيق ذرعاً بالاختلاف، وإنما نريد أن نُبيِّن الحقّ ناصعاً.

ولَعَلّي لا أجانب الصواب إذا قلت: إنّ الحظ الأوفر من الشكر يجب أن يتوجه إلى أولئك الذين كانوا السبب الرئيس في وضع مثل هذه البحوث وتدبيجها، أقصد أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، الذين كتبوا ما باعدَهم عن الصواب، فاضطرني وأمثالي إلى البحث والتنقيب في زمن الصمت والسكون ، والتقصير في خدمة كتاب الله عز وجل، بل ومُناظرة هؤلاء ومُناصحتهم، طبقاً لقواعد المناظرة العلمية في ضوء ضوابط التفسير، مع تقديري لجهودهم، ورُبَّ ضارة نافعة.

إنَّ من نعم الله عز وجل على هذا الدين أن قيَّض له أناساً يهاجمونه ويعارضونه، ويعلنون عليه حرباً ضروساً لا هوادة فيها بأفكارهم وأقلامهم، ويرصدون لذلك الأموال العظيمة، والجهود الكبيرة، ويجنّدون لهذه الحرب أفتك ما لديهم من أسلحة فكرية مدمرة، ثم ينتظرون انتهاء دور الإسلام في قيادة العالم، ولكنهم سرعان ما تتجهّم جباههم، يوم يرون النار التي أوقدوها على الإسلام ارتدَّت إليهم، فأحرقت باطلهم، وكشفت عوارهم، فما زادت الإسلام إلاّ انتشاراً حتى كأنهم بذلك إنما يبشرون بالإسلام ليعرف الناس حقيقته فيدخلوا فيه أفواجاً، ويدير الناس حينئذٍ ظهورهم للأباطيل حين تحرقها نار الحقيقة، ولا ندري فلربما كانت القراءات المعاصرة للقرآن الكريم نعمة للإسلام لإظهار محاسنه وجواهره، وبضدها تتميّز الأشياء، ولله درُّ أبي تمام حينما قال:

وإذا أرادَ اللّهُ نشرَ فضيلةٍ
طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
ولولا اشتعالُ النار فيما جاورَت
ما كان يعرفُ طيبُ عرفِ العود

فكان بذلك لهؤلاء يد على الإسلام لا نوفيهم إيّاها إلا حين ندعوهم إلى ترك ما هم فيه من ضلال وظلام، والدخول فيه ليختم اللّه تعالى لهم حياتهم بالسعادة، وما ذلك على اللّه بعزيز.